أَثرُ الإمامِ الصَّادِقِ عليه السَّلام
في المَدَارِسِ الإسْلامِيَّة

٨٤

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
قسم الثقافة والإعلام
الشؤون الفكرية والثقافية

أثر الإمام الصادق عليه السلام في المدارس الإسلامية

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
قسم الثقافة والإعلام
الشؤون الفكرية والثقافية
١٤٣٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا

سورة النساء: الآية ٤١

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين أبي القاسم محمد المصطفى وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين واللعن الدائم على أعدائهم من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين وبعد..

في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وبعد عصر النبوة انتشر الدين الإسلامي في شتى أقطار المعمورة، وذلك بسبب ما قدمه أوصياء النبي صلى الله عليه وآله حملة الرسالة وأولي الأمر من جهود مضنية لإرساء قواعد الدين الإسلامي خارج الجزيرة العربية، وكذلك لأن الدين الإسلامي دين الفطرة الذي يدعو إلى عبادة رب واحد لا شريك له ونبذ الآلهة الأخرى التي لا تضر ولا تنفع، فضلاً عن ذلك أن الدين الإسلامي يدعو إلى العدل والمساواة وكل عمل وخُلق حسن وينهى عن كل خلق وعمل قبيح إلى غير ذلك من التشريعات التي جاء بها ليرفع الإنسان من مستنقع الرذيلة إلى ربى الفضيلة ومن حضيض الحيوانية إلى ذروة الكمال الإنساني.

ثم إن مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي يمثل الإسلام بل هو أصل الإسلام بعقائده وفروعه، انتشر بسرعة فائقة في الأقطار الإسلامية

وذلـك بعد أن شـايع أكثر المهاجرين والأنصار أمـير المؤمنين علي بن أبـي طالب عليه السلام، وحاربوا معـه حروبه الثلاث ووقفوا معه صفاً واحداً أثناء خلافته وفي عاصمته الكوفة، فانتشـر التشـيع في العراق بشكل كبير ثم امتد إلى الأقطار المجاورة.

ثـم جاء الدور الشـرعي للعترة المطهرة في بيان وتفصيل الشـريعة ومـا جـاء فيها، فـكان بيـت النبوة مفتـوح البـاب لاسـتقبال الوفود والطـلاب الـذي تزاحموا عليه ملتمسـين أنواع العلـوم والمعارف من ذلك المعين الذي لا ينضب، فكان ذلك البيت أشبه با لجامعة الكبر ى التي ينطلق شـعاعها ليملأ الآفاق فيهتدي به الضال، ويسترشـد به الحيران، ويأمن به الخائف.

وكان للإمـام الصـادق عليه السلام الأثـر الواضـح في تطوير هـذه ا لجامعة وتوسـعتها لتضم أكابر علماء الأمة من مختلف المذاهب الإسـلامية فضـلاً عن طـلاب العلوم والمعـارف المتنوعة ومن شـتى بقاع الأرض. ونحـن في بحثنـا المتواضـع هـذا نحـاول أن نسـلط الضـوء على دور الإمـام الصـادق عليه السلام في تنمية وتطويـر المدارس الإسـلامية، ومعرفة تلك المدارس التي كان لها الدور الكبير في انتشار الدين الإسلامي في مشـارق الأرض ومغاربهـا، راجين العلي القديـر أن يوفقنا لذلك إنه سميع مجيب.

مدرسة المدينة

مع إطلالة عصر الرسالة وانطلاق نبي الرحمة صلى الله عليه وآله بتبليغ تلك الرسالة الإلهية وبيان ما جاء فيها وما أراده الله تعالى من عباده، وضع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الحجر الأساس للمدرسة الإلهية في الأرض وقد جاء في هذه الرسالة الحث على العلم والتعلم، فكان أول الآيات نزولاً من القران الكريم تقول (اقرأ) ثم تواترت آيات الذكر الحكيم في مدح العلم والعلماء والأمر بطلب العلم وأمر الله تعالى بالنظر والتفكر والتدبر بل وحصر خشيته بالعلماء فقال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)، وصدر عن نبي الرحمة صلى الله عليه وآله الكثير من الأحاديث التي تنص على تمجيد العلم وإكبار العلماء والحث على طاعتهم وإعانتهم في إقامة أحكام الدين وإن العلماء أمناء الله على دينه.

ومع هجرة النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة وبناء المسجد النبوي أصبح ذلك المسجد المبارك وبيت النبي صلى الله عليه وآله أول مدرسة أو جامعة إسلامية انطلق منها شعاع العلم والتعلم، وتعلم طلابها علوم الشريعة وتفسير الآيات القرآنية من فم المفسر الأول نبي الرحمة صلى الله عليه وآله فضلاً عن تشريع الأحكام الشرعية التي ينتظم بها أمور المسلمين العامة والخاصة، واستمرت هذه المدرسة بالعطاء وجذب العلماء وطلاب العلم إلى

أواسط القرن الثاني الهجري وكان يترأسها في تلك الفترة الإمام جعفر الصادق عليه السلام خلفاً لجده وآبائه عليهم السلام، وكان لنجاح هذه المدرسة المباركة عوامل عدة، منها:

١. الزمان: نقصد بالزمان ليس الدقائق والساعات بل الفترة التي جاء فيها الإسلام وقيام مدرسته في وقت يحتاج فيه المسلم معرفة كيفية عبادة الإله الواحد وكيف يمارس أفعاله العبادية اليومية أو الموسمية، كذلك حاجته إلى الأحكام التي تنظم حياته وأموره بشكل عام أو خاص التي ترفع القيمة المعنوية للأفراد و ا لجماعة.

٢. ا لمحيط: ونقصد به ا لمحيط الذي انطلقت منه تعاليم وعلوم المدرسة الإسلامية الأولى حيث ان للمدينة المنورة محيط ذا طابع خاص وذلك لوجود ثقافة دينية متنوعة عند أهلها، فكان ذلك ا لمحيط خصب في تطوير المدرسة واتساعها.

٣. شخصية المؤسس أو المعلم: كان لشخص النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأوصيائه عليهم السلام ممن ترأس هذه المدرسة الأثر الكبير والبالغ في ازدهارها وتقبل طلابها علومها بصدور يعمرها حب النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، كما كان لهذه الشخصيات العظيمة دافع لاهتمام المسلمين في حصول العلوم والمعارف المتنوعة، حيث

دأب الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من بعده التقرير والوقوف على كل صغيرة وكبيرة تخص الإسلام والمسلمين بل الإنسانية جمعاء، فكانوا عليهم السلام يأمرون بهذا العمل وينهون عن آخر، ويحثون على فعل ما ويكرهون عمل آخر، فكانوا مع المسلمين في كل الأمور، يحزنون لأحزانهم، ويفرحون لأفراحهم، كذلك ما يتمتع به أهل البيت من إمكانيات علمية عالية لن تجدها عند غيرهم. وقد ساعد ذلك في تطوير واستمرار المدرسة حتى أصبحت قبلة المتعلمين يقصدها الداني والقاصي من شتى أرجاء المعمورة.

فقهاء وطلاب هذه المدرسة

كان من فقهاء هذه المدرسة ورائدها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وسيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام وسيدا شباب اهل ا لجنة الحسن والحسين والأئمة من ولد الإمام الحسين عليهم السلام ومن الصحابة والتابعين ابن عباس حبر الأمة وفقيهها[١]، و سلمان الفارسي[٢] حيث كانت له مدونة في الحديث، وأبو ذر الغفاري، وأبو رافع إبراهيم مولى رسول الله صلى الله عليه وآله [٣]، وعلي بن أبي رافع [٤]، وعبيد الله بن أبي رافع [٥]، و الاصبغ بن نباته ا لمجاشعي، و أبو الأسود الدؤلي[٦] و سعيد

---

(١) - عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب، له مؤلفات و أقوال في تفسير الآيات القرآنية ونقل السنة عن المعصوم وحكايات عنهم.

(٢) - أبو عبد اللّه سلمان الفارسي مولى رسول اللّه صلى الله عليه وآله منزلته عظيمة أول الأركان = = الأربعة، وكفى في فضله قول النبي صلى الله عليه وآله : " سلمان منا أهل البيت " ومن حواريي أمير المؤمنين عليه السلام روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مات سنة ٣٦ ﻫ /انظر الناصريات - الشريف المرتضى - هامش ص ٣٢٩،

(٣) - اسلم قديماً بمكة ثم هاجر إلى المدينة وشهد مع النبي صلى الله عليه وآله مشاهده ولزم أمير المؤمنين عليه السلام، له كتاب السنن والأحكام والقضايا/ رياض المسائل / السيد علي الطباطبائي/ ج١ص٩

(٤) - له كتاب في فنون الفقه كالوضوء والصلاة وسائر الأبواب / جواهر الفقه / القاضي ابن براج /ص١١

(٥) - له كتاب من شهد حروب أمير المؤمنين من أصحاب النبي.

(٦) - التابعي المعروف أخذ النحو عن أمير المؤمنين عليه السلام وكتبه في كراس وعرضه

بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبو خالد الكابلي[١]، وكان الأئمة عليهم السلام وهؤلاء الفقهاء والعلماء يقودون الحركة الفكرية في العالم الإسلامي وانطلاق هذه الحركة من المدينة بشكل خاص، وازدهرت هذه الحركة حتى بلغ هذا الازدهار الفكري غايته في عهد الإمام الصادق عليه السلام، فقد ازدهرت المدينة المنورة في عصر الإمام، وزخرت بطلاب العلوم ووفود الأقطار الإسلامية، وانتظمت فيها حلقات الدرس، وكان بيته جامعة إسلامية يزدحم فيه رجال العالم وحملة الحديث من مختلف الطبقات ينتهلون موارد علمه، وقد بلغوا الذروة في فهم الحديث وفقهه واستنباط الأحكام وأكثروا من تأليف الكتب والرسائل في الحديث والفقه والتفسير وغيرها من العلوم، وبرز منهم نخبة من العلماء أمثال، زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم الطائفي، وأبي بصير الاسدي، وبريد من معاوية، و الفضيل بن يسار، وتبعهم جميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحماد بن عثمان، وهشام بن الحكم، وحماد بن عيسى، وأبان بن عثمان، وهم أصحاب أصول وكتب قيمة تعد من أهم ثروات المكتبة الإسلامية [٢].

على أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: نعم ما نحوت/ جواهر الفقه / القاضي ابن البراج / ص١١.

(١) - سعيد بن المسيب و القاسم بن محمد بن أبي بكر و أبو خالد الكابلي، من أصحاب الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام.

(٢) - انظر جواهر الفقه / القاضي ابن البراج / ص١٢

قال ابن حجر عن الإمام الصادق عليه السلام: نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان(١)، حتى أصبحت المدينة المنورة في عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام مركزا كبيرا من مراكز الإشعاع العلمي والفكري في العالم الإسلامي(٢).

جامعة الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة

بوفاة الإمام الباقر عليه السلام انتقلت الإمامة وزعامة المسلمين إلى الإمام الصادق عليه السلام فقام في تشييد جامعته العلمية الكبرى في جو يسوده الرعب والاختناق، حيث البلدان الإسلامية يحكمها حكام الجور، وفي أجواء تكاثرت فيه دعاة الفساد والرذيلة، ديدنهم نشر الزيف والباطل ومقارعة الحق والفضيلة. في تلك الأوساط الرهيبة والأجواء الملبدة بغيوم البغضاء والكراهية لآل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أقدم الإمام عليه السلام على افتتاح تلك الجامعة في مجتمع متناقض مع تعاليم الشريعة الإسلامية من ناحية ومع تعاليم أهل البيت عليهم السلام من ناحية أخرى، إلا ما شذ وندر من أفراد قلائل اتخذوا سياسة التقية والحذر من السلطة الأموية القائمة يومئذ وأشياعهم.

---

(١) - الصواعق المحرقة / ابن حجر الهيتمي / ص١٩٩

(٢) - انظر رياض المسائل /السيد علي الطباطبائي / ج ١ ص ١٣ - ١٤

افتتحت الجامعة والأمة الإسلامية في دوامة من الفوضى وتنازع في الآراء، واضطراب في الأهواء والميول، وتشتت في الأفكار والاتجاهات. كان ولاة الأمور وعمالهم يحكمون بما يسوغ لهم، وضعاف النفوس من وعاظ السلاطين يتقربون إلى الحكام عن طريق بيع دينهم وضمائرهم، فكانوا يتهمون هذا ويشنعون على ذاك، ويقلبون الحقائق ويروجون لكل فاسد وباطل. في هذا الوسط الزائف كان الإمام الصادق عليه السلام وأتباعه والشخصيات النظيفة الملتزمة أكثر الناس نصيبا من الاضطهاد والتعقيب والبلاء. عاش إمامنا الصادق عليه السلام تلك الفترات المرعبة من العهد الأموي البغيض، وشاء القضاء والقدر أن يعاصر من ملوكهم كلا من عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، ومروان بن محمد آخر أولئك الفراعنة. عاصر الإمام عليه السلام كل تلك الحفنة الحاقدة على رسالة جده المصطفى صلى الله عليه وآله، والمبغضة لآل بيت النبوة، فعاش تلك المدة الطويلة وأهل بيته وشيعته في أجواء مرعبة، محفوفة بكل صنوف البلاء وا لمحن. وما انطوت الأيام والليالي حتى دب الخلاف بين الأمويين المتسلطين على رقاب المسلمين، فاضطربت دولتهم وضعفت أركانها، فتعالت الصيحات بسقوطهم وإقامة دولة آل محمد عليهم السلام أصحاب الأمر

وولاته الشرعيين، وأخيرا انقضى حكم دولة بني أمية وذهب حكامها إلى غير رجعة، وجاء دور بني العباس بزعامة السفاح الذي تظاهر بولائه لآل البيت عليهم السلام والانتقام من الأمويين قتلة الإمام الحسين عليه السلام في هذه الفترة الانتقالية تنفس الإمام الصادق عليه السلام وأهل بيته وشيعته الصعداء، فكان لجامعته العلمية، الأثر الواضح في تقدم الغذاء الروحي والفكري للأمة عن طريق توجيههم ونشر أحكام وتعاليم الشريعة الغراء بين صفوفهم. وكانت داره عليه السلام منتدى لنشر صنوف العلوم والمعارف، ومشعلا من مشاعل الهداية والفكر الخلاق، فتزعم - بحق - الحركة الفكرية في أول جامعة إسلامية، تضم الآلاف من الطلبة والمتشوقين إلى العلوم والمعارف، فتخرج منها الرعيل الأول من علماء الحديث والفقه والتفسير والحكمة والكلام والفلسفة والرياضيات والنجوم والطب وغيرها، وكانوا يفتخرون بتتلمذهم على يد الإمام الصادق عليه السلام وتخرجهم من جامعته العلمية، ولم يزل الإمام عليه السلام مشعلا ينير الطريق أمام طلبة العلم والمعرفة [1].

ومهما يكن من حال فإن الدولة العباسية جعلت من الكوفة عاصمة لها بعد نجاح ثورتها، وكانت الكوفة مركزاً علمياً وتجارياً وسياسياً معروفاً في العالم الإسلامي يقصده طلاب العلم والمال

(١) - انظر أصحاب الإمام الصادق عليه السلام / عبد الحسين الشبستري/ ج١ ص١١

والسياسة من أطراف العالم، كما هاجر إليها عدد ليس بقليل من الصحابة والتابعين، وفي ذلك الحين انتقل الإمام الصادق عليه السلام إلى الكوفة ليفتح جامعته العلمية في منزله[١] ومسجد الكوفة الذي ازدحم عليه العلماء وطلاب العلم والفقهاء ليتزودوا مما يطرح من أفكار وآراء في دروس وحلقات منظمة وكان لاختلاف الوفود والطلاب إلى هذه الجامعة أثر واضح في التلاقح الفكري والذهني.

واستقر الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة سنتين وذلك في عهد الحاكم العباسي أبي العباس السفاح، وقد اغتنم الإمام الصادق عليه السلام الفرصة التي أتيحت له بعد سقوط الدولة الأموية وظهور الدولة العباسية التي رفعت شعار الرضا من آل محمد، أن ينشر مذهب أهل البيت عليهم السلام عن طريق مدرسته التي أمها طلاب من مختلف أنحاء العالم، فازدهرت العلوم ودونت الأصول والرسائل وكثر محدثو هذه المدرسة[٢]، وقد روى أبان بن تغلب بن رباح الكوفي عن الإمام الصادق عليه السلام (٣٠٠٠٠) حديثاً وروى (آل أعين) أضعاف هذا المقدار[٣] ومحمد

(١) - كان منزله عليه السلام في بني عبد قيس في الكوفة / انظر تأريخ الكوفة / السيد حسين بن السيد أحمد البراقي / ص٤٠٨

(٢) - قال الحسن بن علي بن زياد الو شاء لأبي عيسى القمي : إني أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد. رياض المسائل / السيد علي الطباطبائي/ ص١٨

(٣) - شرح اللمعة الدمشقية / الشهيد الثاني / ج١ص٣٦

بن مسلم عن الصادقين عليهما السلام (٤٠٠٠٠) حديث[١].

وكان للإمام الصادق عليه السلام في قيادة الحركة الفكرية والعلمية الدور الفعال و ازدهار الكوفة علمياً، و لمتانة الصرح الفكري الذي شيده الإمام الصادق عليه السلام فقد أرسى حركة الفقه والعلم على قواعد ثابتة واصول دائمة، ليبقى فكر أهل البيت عليهم السلام منطلق الحركة العقائدية ومبعثها ومركز الإشعاع الفكري للإنسانية جمعاء.

ملامح مدرسة الكوفة

لم يكن تدوين الحديث أمراً شائعاً بين المحدثين في عصر صدر الرسالة وما بعدها، وظهرت في عهد الإمام الباقر عليه السلام ظاهرة التدوين وتطورت ونمت في عهد الإمام الصادق عليه السلام وفي هذا العهد أصبح التدوين من الأمور المتيسرة، وقد دعا الإمام الصادق عليه السلام أصحابه وطلابه من تدوين الأحاديث ومراجعتها وكان يقول عليه السلام لأصحابه: (اكتبوا فإنكم لا تحفظون إلا بالكتابة)[٢]، وإن أول ملامح هذه المدرسة التدوين، وفيما يلي بعض ملامح المدرسة الكوفية:

---

(١) - رياض المسائل / السيد علي الطباطبائي / ج١ص١٨

(٢) - شرح اللمعة الدمشقية / الشيهيد الثاني / ج١ص٣٨

١ - تدوين الحديث

يعتبر الحديث (أو السنة) ثاني مصادر التشريع الإسلامي وما أوجب الله تعالى من الأحكام على العباد بتبليغ من الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله. فكان من الطبيعي أن يهتم المسلمون المعاصرون للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بما يأمر النبي وينهى وما يفعله في حياته العامة والخاصة، لأنهم اعتقدوا أنه لا ينطق عن الهوى بل هو منبعث من الوحي الإلهي. ثم إن جملة من الصحابة دونوا الحديث فضلاً عن حفظه في الصدور، ولم يزالوا يلهجون بما قاله الرسول صلى الله عليه وآله أو فعله، فينقلون ما سمعوه وشاهدوه إلى من لم يكن حاضرا معهم، ويصدرون على ضوء الأقوال والأفعال فتاواهم وآراءهم، ويأمرون غيرهم باتباعها لأنها - كما يعتقدون - هي شريعة الله تعالى ودينه الذي أمر نبيه بتبليغه، وكانت الحكم الفصل عند وقوع الاختلاف في أمر من أمور دينهم ودنياهم. وانتقلت هذه السنة من الخلف إلى السلف محفوفة بالاهتمام الكبير، على الرغم من صدور الأوامر من الحكام بمنع تدوين السنة، وبعد عصر النبي صلى الله عليه وآله وضعت أسس خاصة تميز الأحاديث الصحيحة عن غيرها وكذلك لحفظها من التلاعب والتحريف.ثم أن أقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام وأفعالهم كالمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله على حد سواء، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله أوصى

باتباع القرآن والعترة والتمسك بهما في كثير من الأحاديث المروية في أمهات مؤلفات المسلمين عامة مصرحا بأنهما لا يفترقان حتى يردا عليه الحوض، وحث الأمة على اقتفاء أثر أهل بيته عليهم السلام، فضلاً عن أهل البيت أدرى بما في البيت، وقد أخذوا علومهم عن علي عليه السلام الذي لم يفارق رسول الله صلى الله عليه وآله منذ مولده حتى قبضه في حال من الأحوال، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد زق علمه لعلي زقا وصرح فيه بأنه باب مدينة علمه، ولابد أن يؤتى من هذا الباب، وهذا يعني أنه لم يعرف الهدى من الضلال إلا من هذا الطريق. نعم إن حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام و أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام هي أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله، وإن من صميم واجب الإمام أن يحافظ على الشريعة ويصونها ويأمر باتباع ما جاء فيها وينهي ما نهت عنه، والإمام عليه السلام أيا كان سواء الأول أو الأخير عندما يروي حديثاً فإنه يروي عن النبي صلى الله عليه وآله إن أسنده أو لم يسنده وذلك لأن العترة الطاهرة أحاطوا بالسنة النبوية، التي لم تحتفظ أكثرها الأمة الاسلامية، وإن جميع ما يروى عنهم من أحاديث في مجالي العقيدة والشريعة، كلها رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن طريق آبائهم، فقد(روى حماد بن عثمان وغيره قالوا : سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول : حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين

عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسـول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسـول الله صلى الله عليه وآله قول الله عز وجل)[١].

وعن جابر قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : إذا حدثتني بحديث، فأسنده لـي فقـال : حدثني أبي عن جدي رسـول الله صلى الله عليه وآله، عـن جبرائيل عليه السلام، عن الله عز وجل، وكل ما أحدثك فهو بهذا الإسـناد، وقال : يا جابر لحديث واحد تأخذه عن صادق خير لك من الدنيا وما فيها)[٢].

وقـد اهتم الإمام الصادق عليه السلام بتدوين السـنة وأمر أصحابه برواية الحديـث وتدوينـه في كتب فجمـع الأصحاب أحاديـث الأئمة عليهم السلام في مدونـات كبـيرة وصغـيرة حفظا لها مـن النسـيان والضيـاع، فأثرت الوسـط العلمي بـتراث علمي ضخم انتهلت منـه الأجيال المتعاقبة، وارتوت من غديره العلماء والفقهاء، فانتهجوا نهج سـلفهم فجمعوا الأحاديـث ونسـقوها وصنفوهـا في مجاميـع تصونها عن التشـتت، فظهرت فيما بعد عصر الأئمة مؤلفات حديثية هامة كان من أجلها الكتب الأربعة المعروفة (الكافي و من لا يحضره الفقيه و الاستبصار و التهذيب)[٣]، التي تعد من أهم المصادر الحديثية في العالم الإسلامي

(١) - الكافي / الشيخ الكليني / ج١ص٥٣

(٢) - انظر المهذب /القاضي ابن البراج / ج ١ ص ٢٠ كلمة المقدم

(٣) - الـكافي، للشـيخ الكليني، من لايحضره الفقيه، للشـيخ الصـدوق، و التهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي.

ثم تتابعت الجهود في الرواية والتدوين بالأصول المقررة عند علماء الحديث.

٢ - المستحدث من المسائل

بالنظر لتطور الحياة الاجتماعية ووجود الأحداث والحاجات التي يحتاجها الفرد المسلم، وحدث من الوقائع والأحداث ما لم تشتمل نصوص القرآن والسنة على أحكامه، كان لا بد من الوصول إلى هذه الأحكام بطريق آخر، وقد ذهب علماء الأمة إلى استحداث أصلين هما (الإجماع، والقياس) أو (القياس والاستحسان)ومهما تكن الدقة في العمل بهما فإنهما معرضان إلى الزلل والانحراف، ولما كان الرسول صلى الله عليه وآله قد أوكل أمر بيان وتبليغ أحكام الله تعالى في هذه المسائل إلى أهل بيته من بعده في حديث «الثقلين» المعروف، واشتغال الناس بالقياس والاستحسان الذي اعتمد الرأي في صدور الأحكام، وقف الإمام الصادق عليه السلام موقف المعارض منهما، ودعى أصحابه إلى عدم الأخذ بهما وعارض المذاهب الفقهية التي كانت تأخذ بالقياس أشد المعارضة [١].

قال أبان بن تغلب : قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في رجل قطع

(١) - شرح اللمعة / الشهيد الثاني / ج ١ ص ٣٨

إصبعا من أصابع المرأة كم فيها؟

قال: عشرة من الإبل.

قلت: قطع اثنين؟

قال: عشرون.

قلت: قطع ثلاثا؟

قال: ثلاثون.

قلت: قطع أربعا ؟

قال: عشرون.

قلت : سبحان الله يقطع ثلاثا فيكن عليه ثلاثون، فيقطع أربعا فيكون عليه عشرون! إن هذا كان يبلغنا ونحن بالعراق فنبرأ ممن قاله، ونقول: الذي قاله شيطان.

فقال عليه السلام: مهلا يا أبان.. هكذا حكم رسول الله صلى الله عليه وآله إن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية فإذا بلغت الثلث رجعت المرأة إلى النصف، يا أبان إنك أخذتني بالقياس، والسنة إذا قيست محق الدين[١].

(١) - انظر كشف اللثام /الفاضل الهندي/ ج١١ص٤٨

٣- الأخبار العلاجية

من ملامح مدرسة الكوفة الأخبار العلاجية التي جاءت لتعالج الاختلاف بين الرواة في الرواية، أو هي الأخبار الواردة لعلاج تعارض الخبرين المتعارضين،فقد شاع نقل الحديث عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذه الفترة، وكثر الدس وظهر الاختلاف في متون الروايات، فكان يبلغ البعض منهم حديثان مختلفان في مسألة واحدة، وكان الرواة يطلبون من أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يبينوا لهم مقياسا لاختيار وتمييز الحديث الصحيح من بين الأحاديث المتضاربة التي تردهم في مسألة واحدة، وقد ورد عنهم عليهم السلام أحاديث في معالجة الأخبار المتعارضة تسمى (الأخبار العلاجية) في الأصول[1].

عن عبد الله بن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به؟

قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهدا من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلا فالذي جاءكم به أولى به)[2].

وعن الباقر عليه السلام فقد قال زرارة :(سألت أبا جعفر عليه السلام

(١) - انظر شرح اللمعة الدمشقية / الشهيد الثاني/ ج١ص٤٠

(٢) - دراسات في علم الدراية /علي أكبر غفاري / ص ٢٥٩

فقلت: جعلت فداك يأتي عنكم الخبران والحديثان المتعارضان فبأيهما آخذ؟

فقال عليه السلام: يا زرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك، ودع الشاذ النادر.

فقلت: يا سيدي إنهما معا مشهوران مأثوران عنكم.

فقال: خذ بما يتول أعدلهما عندك وأوثقهما في نفسك.

فقلت: إنهما معا عدلان مرضيان موثقان.

فقال: انظر ما وافق منهما العامة فاتركه، وخذ بما خالف، فإن الحق فيما خالفهم. قلت : ربما كانا موافقين لهم أو مخالفين فكيف أصنع؟

قال: إذا فخذ بما فيه الحائطة لدينك واترك الآخر.

قلت: فإنهما معا موافقان للاحتياط أو مخالفان له فكيف أصنع؟

فقال: إذا فتخير أحدهما وتأخذ به ودع الآخر)[1].

وقد ساعدت المسائل العلاجية في تمييز الوضع والتدليس في الأحاديث.

---

(١) - منتهى الأصول / حسن بن علي أصغر الموسوي/ ج٢ص٥٩٩

٤ - فتح باب الاجتهاد

نظراً لاتساع رقعة الإسلام وامتداده على مشارق الأرض ومغاربها، فقد احتاج الفقهاء والعلماء إلى معرفة أحكام الله تعالى، ولا يجدون نصا (من الكتاب أو السنة) لكثير من الموارد الفقهية والعقائدية ويتعسر عليهم الاتصال بالإمام عليه السلام، فقد وضع أئمة أهل البيت عليهم السلام أصولا وقواعد خاصة للاستنباط والاجتهاد يستعرضها الفقهاء بتفصيل كالاستصحاب والبراءة والاحتياط والتخيير، وجملة من القواعد الفقهية كقاعدة الطهارة واليد والإباحة والحلية، وما شاكل ذلك مما يعين الفقيه على الاجتهاد والاستنباط.

ومن ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام في قاعدة الاستصحاب: (ولا ينقض اليقين بالشك أبدا)[١]، وقوله عليه السلام في قاعدة الطهارة : (كل شيء طاهر حتى تعلم أنه قذر)[٢].

وقوله عليه السلام في قاعدة الحلية: (كل شيء لك حلال حتى تعرف الحرام منه بعينه)[٣] و قاعدة اليد التي هي الحكم بملكية شيء لمن كان

---

(١) - فرائد الاصول / الشيخ الأنصاري / ج٣ص٦١

(٢) - الرسائل / السيد الخميني/ ج١ص١١١

(٣) - بداية الوصول في شرح كفاية الاصول / الشيخ محمد طاهر آل الشيخ راضي / ج٦ص٣٢٢

مسلطاً عليه ومتصرفاً فيه لدى الشك في ملكيته.(١)

وكان الناس يطلبون إلى الإمام أن يعين لهم مرجعا فيما يعرض لهم من المسائل الشرعية، فيعين لهم بعض أصحابه ممن يطمئن إليهم، وممن سمع حديثه ووعاه، كما أمر الإمام الباقر عليه السلام أبان بن تغلب أن يجلس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ويفتي الناس حيث قال له: (اجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك) (٢).

وكان الإمام الصادق عليه السلام يُرجع شيعته إلى أصحابه ممن يرى فيه القدرة في الإفتاء والاستنباط، ومن ذلك قوله عليه السلام لسلمة بن أبي حبيبة: ائت أبان بن تغلب، فإنه قد سمع مني حديثا كثيرا، فما روى لك عني فاروه عني.

وقوله عليه السلام لشعيب العقرقوفي بعد السؤال عمن يرجع إليه: (عليك بالأسدي) يعني أبا بصير.

وقوله عليه السلام لعلي بن المسيب بعد السؤال عمن يأخذ عنه معالم الدين: عليك بزكريا بن آدم المأمون على الدين والدنيا.

وقوله عليه السلام لما قال له عبد العزيز بن المهتدي: ربما أحتاج ولست

(١) - اصطلاحات الاصول / الشيخ علي المشكيني/ ص٢١٥

(٢) - حصر الاجتهاد /آغا بزرك الطهراني /ص ٤٠

ألقاك في كل وقت، أفيونس بن عبد الرحمن ثقة آخذ عنه معالم ديني؟

قال: نعم[١].

موقف مدرسة أهل البيت من الرأي

إن مدرسة أهل البيت عليهم السلام وقفت من القياس والرأي والاستحسان موقفا سلبيا بل ومن الاجتهاد الذي يساوي الرأي وأنكرته أشد الإنكار.

فقد ورد عنهم (أن دين الله لا يصاب بالمقائيس) و (أن دين الله لا يصاب بالقياس) وكان موقف الإمام الصادق عليه السلام من مدرسة الرأي واضحا فقد أنكر على رائديها وخصوصا أبي حنيفة، وكذلك علماء مدرسة أهل البيت أنكروا العمل بالرأي والاجتهاد الذي يساويه[٢].

وفي رواية: أن الصادق عليه السلام قال لأبي حنيفة لما دخل عليه: من أنت؟ قال: أبو حنيفة.

---

(١) - فرائد الأصول /الشيخ الأنصاري/ ج ١ ص ٢٩٩ - ٣٠٠

(٢) - النص والاجتهاد / السيد شرف الدين / ص مقدمة المحقق ١٧

قال عليه السلام: مفتي أهل العراق؟

قال: نعم.

قال: بما تفتيهم؟

قال: بكتاب الله.

قال عليه السلام: وإنك لعالم بكتاب الله، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه؟

قال: نعم.

قال: فأخبرني عن قول الله عز وجل: (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ) أي موضع هو؟

قال أبو حنيفة: هو ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى جلسائه، وقال عليه السلام: نشدتكم بالله، هل تسيرون بين مكة والمدينة ولا تأمنون على دمائكم من القتل، وعلى أموالكم من السرق؟

فقالوا: اللهم نعم.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويحك يا أبا حنيفة! إن الله لا يقول إلا حقا، أخبرني عن قول الله عز وجل: (وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)، أي موضع هو؟

قال: ذلك بيت الله الحرام، فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إلى جلسائه وقال عليه السلام: نشدتكم بالله هل تعلمون أن عبد الله بن الزبير وسعيد بن جبير دخلاه فلم يأمنا القتل؟

قالوا: اللهم نعم.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويحك يا أبا حنيفة! إن الله لا يقول إلا حقا. فقال أبو حنيفة: ليس لي علم بكتاب الله، إنما أنا صاحب قياس.

قال أبو عبد الله عليه السلام: فانظر في قياسك - إن كنت مقيسا - أيهما أعظم عند الله القتل أم الزنا؟

قال: بل القتل.

قال: فكيف رضي في القتل بشاهدين، ولم يرض في الزنا إلا بأربعة؟!

ثم قال عليه السلام له: الصلاة أفضل أم الصيام؟

قال: بل الصلاة أفضل.

قال عليه السلام: فيجب على قياس قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصلاة في حال حيضها دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى عليها قضاء الصوم دون الصلاة.

قال له عليه السلام: البول أقذر أم المني؟

قال: البول أقذر.

قال عليه السلام: يجب على قياسك أن يجب الغسل من البول دون المني، وقد أوجب الله تعالى الغسل من المني دون البول.

قال: إنما أنا صاحب رأي.

قال عليه السلام: فما ترى في رجل كان له عبد فتزوج وزوج عبده في ليلة واحدة، فدخلا بامرأتيهما في ليلة واحدة، ثم سافرا وجعلا امرأتيهما في بيت واحد، وولدتا غلامين، فسقط البيت عليهم، فقتل المرأتين وبقي الغلامان، أيهما في رأيك المالك، وأيهما المملوك؟ وأيهما الوارث، وأيهما الموروث؟

قال: إنما أنا صاحب حدود.

قال عليه السلام: فما ترى في رجل أعمى فقأ عين صحيح، وأقطع قطع يد رجل، كيف يقام عليهما الحد؟

قال: إنما أنا رجل عالم بمباعث الأنبياء.

قال عليه السلام: فأخبرني عن قول الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى

فرعون : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ و (لعلّ) منك شك؟ قال: نعم.

قال عليه السلام: وكذلك من الله شك إذ قال: (لعله)؟

قال أبو حنيفة: لا علم لي.

قال عليه السلام: تزعم أنك تفتي بكتاب الله ولست ممن ورثه، وتزعم أنك صاحب قياس وأول من قاس إبليس لعنه الله ولم يُبنَ دين الإسلام على القياس، وتزعم أنك صاحب رأي وكان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وآله صوابا ومن دونه خطأ، لأن الله تعالى قال : ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّه﴾ ولم يقل ذلك لغيره، وتزعم أنك صاحب حدود، ومن أنزلت عليه أولى بعلمها منك، وتزعم أنك عالم بمباعث الأنبياء، ولخاتم الأنبياء أعلم بمباعثهم منك، ولولا أن يقال: دخل على ابن رسول الله فلم يسأله عن شيء، ما سألتك عن شيء، فقس إن كنت مقيسا.

قال أبو حنيفة: لا أتكلم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس.

وفي رواية أخرى: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال : يا أبا حنيفة، قد بلغني أنك تقيس.

فقال : نعم.

فقال : لا تقس، فإن أول من قاس إبليس لعنه الله حين قال : (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)، فقاس بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار وعرف ما بين النورين، وصفاء أحدهما على الآخر[١].

٥ - التخصص

كان الإمام الصادق عليه السلام يعتني بأن يكون أصحابه وطلابه على مستوى عال في العلوم، واهتم أن يكون كل منهم يختص في علم يراه قد تمكن منه وأحسن فيه، والركيزة الأساسية إن بعض العلوم لم يكن لها سابقة قبله وهذا يدل على أثر الإمام الصادق عليه السلام في تطوير العلوم والأشخاص فكان له تلامذة مختلفون في أقسام مختلفة إذ ليس كل الأفراد على شاكلة واحدة من جهة الاستيعاب الروحي والفكري[٢]، فجعل أبان بن تغلب للفقه وأمره أن يجلس في المسجد فيفتي الناس وكان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التي امتازت باتقاد الذهن و وفور العقل وبعد الغور، والاختصاص بعلوم القرآن وهو أول من ألف في ذلك، وكان فقيهاً يزدحم الناس على أخذ

(١) - مناظرات الإمام الصادق عليه السلام / الحاج حسين الشاكري / ص ٧١ - ٧٦

(٢) - انظر سيرة الأئمة الأطهار / مرتضى مطهري/ ص١٣٧

الفقه عنه، وإذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبي صلى الله عليه وآله فيحدث الناس ويسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال ثم يذكر قول أهل البيت عليهم السلام ويسوق أدلته ومناقشته على طريقة الإمام الصادق عليه السلام في الإجابة، إذ كان عليه السلام اعلم الناس باختلاف الناس وأفقههم.

ووكل لحمران بن أعين[١] الأجوبة عن مسائل علوم القرآن وقد كان من حملة القرآن وممن يحتج بهم في القراءات فهو من القراء المشهورين.

واختص مؤمن الطاق[٢] المساجلة في الكلام، وحمزة بن الطيار[٣] للمناظرة في الاستطاعة، وهشام بن الحكم[٤] للمناظرة في الإمامة

(١) - حمران بن أعين الشيباني، اخو زرارة، يكنى بأبي حسن من الممدوحين وقد خاطبه الإمام الباقر عليه السلام بقوله (أنت من شيعتنا في الدنيا والآخرة) / منتهى المطلب / العلامة الحلي / ج٤ هامش ص٣٤٠

(٢) - محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البجلي، مولى، الأحول، أبو جعفر، كوفي صيرفي، يلقب مؤمن الطاق، وصاحب الطاق. كان دكانه في طاق المحامل بالكوفة. الخلاف /الشيخ الطوسي / ج ١ هامش ص ١٨٠

(٣) - حمزة بن محمد الطيار، كوفي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، مات في حياة الإمام الصادق عليه السلام وترحم عليه، قائلاً (رحمه الله ولقاه نضرة وسروراً، فقد كان شديد الخصومة عن أهل البيت عليهم السلام / انظر معجم رجال الحديث/ السيد الخوئي /ج٧ص٢٩٣

(٤) - هشام بن الحكم، أبو محمد مولى كندة وكان ينزل بني شيبان بالكوفة،

والعقائد وهكذا دواليك[١].

جابر بن حيان

هو أبو عبد الله وقيل أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الطوسي، الخراساني، وقيل الحراني، الكوفي، المعروف بالصوفي.

من مفاخر علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومن مشاهير علماء الفلسفة والحكمة والطب والرياضيات والفلك والمنطق والنجوم، وكان متصوفاً، أديبا، زاهداً، واعظاً، مؤلفاً في شتى صنوف العلم والمعرفة.

تتلمذ على يد الإمام الصادق عليه السلام وأخذ علومه ومعارفه عنه عليه السلام، ولد سنة عشرين ومائة هجرية بطوس وانتقل إلى العراق وأكثر مقامه في الكوفة، وتوفي سنة ستين ومائة هجرية، وقيل ثمانين ومائة، وقيل تسعين ومائة، وقيل ثمان وتسعين ومائة هجرية[٢].

من خواص الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، وكانت له مباحثات كثيرة مع المخالفين في الأصول وغيرها وكان له أصل. انظر معجم رجال الحديث/ السيد الخوئي / ج٢٠ص٢٩٧.

(١) - الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة / أسد حيدر / ج٤ص٢٧٣

(٢) - الفائق في رواة أصحاب الامام الصادق عليه السلام / عبد الحسين الشبستري / ج١ ص٢٧٧

له مؤلفات كثيرة أخذها من الإمام الصادق عليه السلام، وهو أول من وضع أساس الكيمياء الجديد[1]، له مؤلف يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق عليه السلام[2]، له تصانيف مخطوطة كثيرة قيل: عددها ٢٣٢ كتابا، وقيل : بلغت خمسمائة. ضاع أكثرها، وترجم بعض ما بقي منها إلى اللاتينية، منها مجموع رسائل نحو ألف صفحة، و أسرار الكيمياء، و علم الهيئة وأصول الكيمياء والمكتسب مع شرح بالفارسية، وكتاب في السموم و تصحيحات كتب أفلاطون والخمائر والرحمة وكتاب الخواص الكبير المعروف بالمقالات الكبرى والرسائل السبعين، والرياض و صندوق الحكمة والعهد في الكيمياء، وأكثر هذه المخطوطات رسائل، و لجابر شهرة كبيرة عند الإفرنج بما نقلوه من كتبه في بدء يقظتهم العلمية.

وهو أول من استخرج حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج، وأول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استحضر ماء الذهب، وينسب إليه استحضار مركبات أخرى مثل كربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم. وقد درس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها، وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيماوية كانت مجهولة قبله، وهو

(١) - المفيد من معجم رجال الحديث / محمد الجواهري / ص٩٩

(٢) - انظر معجم المطبوعات العربية / اليان سركيس/ ج١ص٧٠٠

أول من وصف أعمال التقطير والتبلور والتذويب والتحويل.. الخ)[١].

وعليه فإن هذا العالم هو ثمرة من ثمار مدرسة الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

مدرسة قم والري

بسبب الضغوط والممارسات اللاإنسانية التي مارسها حكام بني العباس ضد العلماء والفقهاء ومحاولاتهم في تسييس الدين الحنيف لما يخدم مصالحهم الشخصية ويقوي هيمنتهم على مقدرات الأمة وإطالة جلوسهم على العروش، وجود من ما يسمى بالعلماء ممن التف حولهم ووقف على بابهم طالباً الدنيا، فقد هاجر الكثير من العلماء والفقهاء إلى قم والري لوجود الساحة العلمية الخصبة التي تستقبل الطاقات العلمية، فكانت مدرسة قم والري في إيران تستوعب العلماء والفقهاء والمفكرين حتى أصبحت حاضرة العلوم والمعارف في ظل من يرعاها ويصونها، فازدهرت حركة التدريس والكتابة والبحث في هاتين المدينتين، وقد برز من هذه المدرسة كبار فقهاء العالم الإسلامي الذي يتبنون فكر وعلوم أهل البيت عليهم السلام وكان لهم الأثر في تطوير العلوم وتدوينها، ومن فقهاء وعلماء هذه

(١) - انظر الأعلام / خير الدين الزركلي /ج ٢ص ١٠٣ - ١٠٤

المدرسة يونس بن عبد الرحمن، وإبراهيم بن هاشم القمي وهو أول من نشر حديث الكوفيين بقم[١]، واستمرت بازدهارها وكثرة علمائها ومحدثيها، وفي زمان علي بن الحسين بن موسى بن بابويه المتوفي سنة ٣٢٩ هجرية (والد الصدوق) كان في قم من المحدثين مائتي ألف رجل [٢].

ومن علماء هذه المدرسة، (الشيخ الكليني) المتوفى سنة ٣٢٩ هـ، و (ابن بابويه والد الصدوق) المتوفى سنة ٣٢٩ هـ و (ابن قولويه) أستاذ (الشيخ المفيد) المتوفى سنة ٣٦٩ هجرية، و (ابن الجنيد) المتوفى سنة ٣٨١ هجرية بالري و (الشيخ الصدوق) المتوفى سنة ٣٨١ هـ والمدفون بالري، وغيرهم من كبار مشايخ الفقه والحديث.

ملامح مدرسة قم والري

كان أثر الإمام الصادق عليه السلام واضحاً في هذه المدرسة، حيث كان مؤسسو هذه المدرسة من أصحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام ومن تتلمذ على أيديهم وراجعهم في المدينة أو في الكوفة، وقد اهتم علماء وطلاب هذه المدرسة بأحاديث أهل البيت عليهم السلام وما يروى عنهم، ومن

(١) - انظر مستدركات علم الرجال / الشيخ علي النمازي الشاهرودي / ج١ص٢٢٣

(٢) - علل الشرائع / الشيخ الصدوق / ج١ص٣

ملامح هذه المدرسة ما يلي :

١. كثرة علمائها وطلابها.

٢. من أعلام هذه المدرسة كبار علماء الإسلام أمثال: الكليني، وابن بابويه، وابن قولويه، وابن الجنيد، و الشيخ الصدوق وغيرهم ممن له بصمة واضحة لأصول مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

٣. نشاط حركة التأليف والبحث الفقهي، وتدوين المجاميع الحديثية الموسعة والكتب الفقهية (١).

مدرسة بغداد

كانت بغداد حاضرة العالم الإسلامي عامة، وكانت مدرستها حافلة بالفقهاء والباحثين وحلقات الدرس الواسعة، وكان النشاط الفكري على قدم وساق.

وقد ازدهرت هذه المدرسة واتسعت علومها، وقد ظهرت في هذه المدرسة شخصيات علمية ساعدت في تطوير العلوم وتنوعها، ولهم الأثر الكبير في الحركة الفكرية، أمثال الشيخ المفيد والسيد المرتضى.

(١) - انظر شرح اللمعة / الشهيد الثاني /ج ١ ص ٤٦ - ٤٧

فهي مركز ثقافي كبير من مراكز الحركة العقلية في العالم الإسلامي يقطنها الآلاف من الفقهاء وا لمحدثين، وتنتشر في آلاف المدارس والمكاتب والمساجد التي كان يحتشد فيها جماهير الطلاب والمدرسين والعلماء كل يوم للدرس والمطالعة، والبحث والمناقشة.

واذا كانت مدرسة قم والري قد تكاملت، فإنها تأصلت وظهرت ملامح الاستقلال عليها وتبلورت أصولها وقواعدها في (بغداد).

ورغم كثرة مدارس البحث العلمي في (بغداد) في ذلك الحين فقد كانت (مدرسة أهل البيت) عليهم السلام أوسعها وأضخمها وأعمقها جذورا وأصولا وأكثرها تأصلا واستعدادا، وأقومها في الاستدلال والاحتجاج.

وكل ذلك كان يبعث طلاب العلم على الالتفاف حول هذه المدرسة أكثر من غيرها، فقد كان يحضر درس (الشيخ الطوسي) حوالي ثلاثمائة مجتهد من (الشيعة)، ومن (العامة) ما لا يحصى[١].

واستقل الشيخ المفيد[٢] بالتدريس في بغداد وهو بعد لم يتجاوز سني الشباب، وتفرغ للفقه والكلام، وكان يحضر مجلس درسه آلاف

(١) - رياض المسائل / السيد علي الطباطبائي / ج١ص٣٧

(٢) - أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد البغدادي، ولد في (عكبرا) وانتقل منها في أيام صباه إلى بغداد بصحبة والده، ونشأ في بغداد، وتفرغ منذ نعومة أظفاره لطلب العلم، فعرف وهو بعد صغيريرتاد حلقات الدراسة بالفضل والنبوغ.

الطلاب: من الشيعة والسنة، وبرز من تلاميذه رجال كبار: أمثال السيد المرتضى، والشيخ الطوسي. ثم أن الشيخ المفيد استطاع أن يغير الجو الفكري في بغداد (حاضرة العالم الإسلامي يومذاك) وان يعمر ندوات الفقه والكلام، ويجذب إلى نفسه طلاب العلم حتى كاد أن يغطي المدارس الفقهية والكلامية الأخرى، والفقهاء والمتكلمين من أتباع سائر المذاهب.وقد كان الفقهاء والمتكلمون يقصدونه من أقطار بعيدة، وكان بيته ندوة عامرة بحديث الفقه والكلام، والنقاش والأخذ والرد. وقد استطاع الشيخ المفيد أن يفرض وجود مدرسة أهل البيت عليهم السلام على أجواء بغداد الفكرية، وهي يومذاك من أهم مراكز الحركة العقلية في العالم الإسلامي وأن يكون رائدا للمدرسة، ومربيا لأساتذتها وعلمائها[1].

أما الشريف المرتضى وأخوه الرضي فقد تتلمذا على يد الشيخ المفيد فعنى بهما الشيخ عناية فائقة، وتفرغ المرتضى في الفقه بجانب تخصصه في الأدب وإلى جانب مؤهلات (المرتضى) الفكرية، وجهده الكبير في طلب العلم وعناية (الشيخ المفيد) أستاذه به، ومكانة أسرته الاجتماعية تفرض شخصيته في الآداب الاجتماعية، والثقافية ببغداد، جعلته أن يكون محل استقطاب طلاب العلم.

(١) - انظر شرح اللمعة / الشهيد الثاني / ج١ص٥٥

وحاول السيد المرتضى أن يتابع خطوات أستاذه المفيد في تطوير مناهج الفقه ودراسة الأصول، فأوتي حظا وافرا في هذا المجال، وتابع خطوات المفيد، وطور كثيرا من مناهج الفقه، وكتب الأصول ودرسها، وربما يصح اعتباره من أسبق من ارتاد هذا الحقل، من حقول الفكر الإسلامي، وفتح كثيرا من مسائل الأصول، وبنى الفروع على الأصول.

وكذا حال الشيخ الطوسي الذي بذل الجهود الكبيرة في توسيع وتطوير الفكر الإسلامي، وبلغت عدة تلاميذه ثلاثمائة من مجتهدي الشيعة، ومن العامة ما لا يحصى كثرة، حتى انتقل إلى النجف الأشرف وظل بالنجف يمارس مهمته في زعامة مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتدريس والتأليف وتطوير مناهج الدراسة الفقهية اثني عشر سنة حتى أن آثره الله لدار لقائه في محرم سنة ٤٦٠ هجرية عن خمس وسبعين سنة.

ومهما كان من أمر فقد أتيح للشيخ الطوسي أن يبلغ بالمدرسة التي فتح أبوابها أستاذيه (المفيد والمرتضى) إلى القمة، ويفرض وجودها على الأجواء الثقافية في بغداد وفي العراق عامة، حتى أن الخليفة القائم بأمر الله بن القادر بالله جعل له كرسي الإفادة والبحث، ونصبه لهذا المكان الرفيع، وكان لكرسي الإفادة والكلام مقام كبير يومذاك بـ(بغداد).

واستطاع الشيخ أن ينظم مناهج الاستنباط والاجتهاد، ويأصل الأصول، ويضع مناهج البحث للأصول، ويفرع المسائل، مما أسدى إلى مدرسة اهل البيت عليهم السلام من الخدمات التي لا نزال نقتطف من ثمارها الطرية[١].

ملامح المدرسة

تميزت مدرسة بغداد بأمور تختلف عن المدارس التي سبقتها، فظهرت فيها الملامح التالية:

١- كان في مدارس (المدينة والكوفة وقم) لا يخرج الدرس عن حدود استعراض السنة، ونقل الحديث، ولم يبلغ رغم تطور المدرسة في عهودها الثلاثة مرحلة الرأي والاجتهاد، في هذه المدرسة ظهرت الصناعة والصياغة الفنية، والاجتهاد والرأي والتفريع في كتابات هذه المدرسة.

٢- وظاهرة أخرى من ملامح هذا العصر هو تفريع المسائل الفقهية واستحداث فروع جديدة لم تتعرض لها نصوص الروايات، وكان البحث الفقهي فيما سبق لا يتجاوز حدود بيان الحكم الشرعي باستعراض الروايات الواردة في الباب.

(١) - انظر شرح اللمعة / الشهيد الثاني / ج١ص٦٣

٣- ظهور (الفقه المقارن)، أو (الخلافي)، فحينما تمركزت مدرسة أهل البيت عليهم السلام في بغداد وفرضت وجودها على الأجواء العلمية في حاضرة العالم الإسلامي أثار ذلك أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى، وأعلنوا المعارضة بوجه المدرسة بصورة صريحة، وأثاروا المسائل الخلافية بصورة حادة، وأدى ذلك إلى اصطدام فقهاء الشيعة بفقهاء المذاهب الأخرى في الندوات وا لمجالس العامة في المسائل الفقهية الخلافية، مما أدى ذلك إلى خصوبة البحث الفقهي، فالخلاف والانشقاق دائما يؤدي إلى الخصوبة، لا العقم، ويدل على خصوبة الذهنية لا عقمها.

وكان من آثار ظهور الخلاف بين (الفقه ألإمامي) والمذاهب الفقهية الأخرى، واتساع رقعة الخلاف بينها: أن تفرغ (فقهاء الشيعة) لبحث المسائل الخلافية بصورة موضوعية، وبشكل مسهب.

وظهر هذا النوع من البحث الفقهي لأول مرة في هذه المدرسة على يد (المفيد والمرتضى والطوسي).

وا لجدير بالذكر أن لأصحاب الأئمة آراء كثيرة تعارض أقوال الأصحاب الآخرين، ومع ذلك فلم يطعن عليهم أي أحد. واعتمد الشيعة في اجتهادهم على الاستدلال المنطقي والتحليل العقلي في إطار القرآن والسنة.

فكان لعلماء الشيعة الفضل في إرجاع العلماء إلى التأليف على

ضوء الكتاب والسنة، وقد كانت لهم اليد الطولى في إخراج فقهاء السنة من التقليد، لكثرة احتجاجهم عليهم، ومباحثتهم معهم فيه[(١)].

مدرسة الحلة

برزت مدرسة الحلة العلمية بعد احتلال بغداد على يد هولاكو، فأخذت تستقطب الشاردين من بغداد من الطلاب والأساتذة والفقهاء.

فاجتمع في الحلة عدد كبير من الطلاب والعلماء، وانتقل معهم النشاط العلمي من (بغداد) إلى (الحلة)، حتى أصبحت من أهم مراكز النشاط الفكري، واتسعت فيها ندوات البحث وا لجدل، وحلقات الدراسة والمكاتب والمدارس، وغيرها[(٢)].

(١) - انظر جامع المقاصد / المحقق الكركي / ج١ص١٠

(٢) - انظر شرح اللمعة / الشهيد الثاني / ج ١ ص ٧٢ - ٧٣

الخاتمة

لعل من أهم الأسباب التي دفعت بالمنصور العباسي إلى قتل الإمام الصادق عليه السلام، هو أنه بعد موت أبي العباس السفاح وتسلم المنصور العباسي سدة الحكم، وجد في مبادئ الإمام وأصحابه خطر عليه وعلى حكومته، وكذلك سعة انتشار صيته في مختلف البلدان، وازدحام الوفود والطلاب على بابه، وعظم هيبته وعلو مقامه، والتفاف الناس حوله، فضيق على الإمام وحارب شيعته ومريديه وقتل وشرد واعتقل الكثير من أعلام البيت العلوي.

وبالرغم من الظروف والأجواء القاسية، فقد استمر الإمام الصادق عليه السلام في أداء رسالته وإدارة جامعته العلمية، وقيادته لمسيرة الأمة الإسلامية نحو الهداية وربى الفضيلة.

ذلك مما جعل الحاكم العباسي يصمم على قتل الإمام عليه السلام فوضعت مؤامرة خبيثة لاغتيال الإمام الصادق عليه السلام في بغداد ونفذتها أذناب الجريمة في المدينة المنورة فمات عليه السلام متأثرا بالسم الذي دس إليه في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ١٤٨ هـ، ودفن في بقيع الغرقد مع أبيه الإمام محمد الباقر وجده الإمام زين العابدين علي بن الحسين، وعمه الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

وبفقد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام خسرت الإنسانية أعظم عالم ومفكر إسلامي معصوم، بقي التراث الإسلامي مدينا له ولأفكاره وآثاره العلمية الخالدة، إلى يومنا هذا.

فسلام الله عليك يا مولاي يوم ولدت ويوم استشهدت ويوم تبعث حيا.

المصادر

جواهر الفقه/ القاضي ابن البراج.

الصواعق المحرقة/ ابن حجر الهيتمي.

رياض المسائل/ السيد علي الطباطبائي.

أصحاب الإمام الصادق عليه السلام/ عبد الحسين الشبستري.

تأريخ الكوفة/ السيد حسين السيد أحمد البراقي.

شرح اللمعة الدمشقية/ الشهيد الثاني.

كشف اللثام/ الفاضل الهندي.

دراسات في علم الدراية/ علي أكبر غفاري.

منتهى الأصول/ حسن بن علي أصغر الموسوي.

فرائد الأصول/ الشيخ الأنصاري.

الرسائل/ السيد الخميني.

بداية الوصول في شرح كفاية الأصول/ الشيخ محمد طاهر آل الشيخ راضي.

إصطلاحات الأصول/ الشيخ علي المشكيني.

حصر الاجتهاد/ آغا بزرك الطهراني.

النص والاجتهاد/ السيد شرف الدين.

مناظرات الإمام الصادق عليه السلام/ الحاج حسن الشاكري.

سيرة الأئمة الأطهار/ مرتضى مطهري.

منتهى المطلب/ العلامة الحلي.

الخلاف/ الشيخ الطوسي.

معجم رجال الحديث/ السيد الخوئي.

الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة/ أسد حيدر.

الفائق في رواة أصحاب الإمام الصادق عليه السلام/ عبد الحسين الشبستري.

المفيد من معجم رجال الحديث/ محمد الجواهري.

معجم المطبوعات العربية/ اليان سركيس.

الأعلام/ خير الدين الزركلي.

مستدركات علم الرجال/ الشيخ علي النمازي الشاهرودي.

علل الشرائع/ الشيخ الصدوق.

جامع المقاصد/ المحقق الحلي.

الفهرس



كان للإمام الصادق عليه السلام الأثر الواضح في تطوير أول جامعة إسلامية عرفها التأريخ ومن ثم توسعتها لتضم أكابر علماء الأمة من مختلف المذاهب الإسلامية فضلاً عن طلاب العلوم والمعارف المتنوعة ومن شتى بقاع الأرض. ونحن في بحثنا المتواضع هذا نحاول أن نسلط الضوء على دور الإمام الصادق عليه السلام في تنمية وتطوير المدارس الإسلامية، ومعرفة تلك المدارس التي كان لها الدور الكبير في انتشار الدين الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها، فكان الإمام الصادق عليه السلام من الذين صنعوا مجد هذه الأمة وبفقده خسرت الإنسانية أعظم عالم ومفكر إسلامي معصوم، بقي التراث الإسلامي مدينا له ولأفكاره وآثاره العلمية الخالدة، إلى يومنا هذا.

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
الثقافة والإعلام
الشؤون الفكرية والثقافية
زورونا www.aljawadain.org
راسلونا fikriya@aljawadain.org